لمعة تاريخية

الأدب الفارسي

قبل الاسلام

بقلم : الاستاذ صدر الدين احمد

تتجه آراء معظم الباحثين الى الجزم بأن الآداب الفارسية لم تقع بين اصابع التدوين إلا في القرن الرابع قبل الميلاد.. إذ كانت قبل هذا أشتاتاً تذاع بالنقل من وعي الى وعي في غير كثير من الضبط . وكتاب (زرادشت) هو اول سفر أدبي عثر عليه مدونا باللغة [الاوستائية] البائدة ، ويقال ان الملك [اردشير بن بابك] هو الذي اوعز بتدوينه في الرقوق خوفا من ضياعه حينذاك . وفي عهد الملك « سابور ابن هرمز » اعيد استنساخه باللغة [البهلوية] .. فاضحى نقياً من الالفاظ الآرامية التي كانت تسربت اليه اثناء تدوينه باللغة الاوستائية الاولى . ولعل الذي يزور المكتبة الملكية في طهران اليوم يجد هذا الكتاب اصلا وهو يحوي خمسة عشر فصلا من فلسفة [زرادشت] .. مفقودة منه — ويا للاسف — ستة فصول ، لابد انها كانت ذا نفاسة تاريخية .

وجدير بالذكر ان الآداب الفارسية لم تكن عدنت في لغة بعينها فقط ، بل عدنت في اربع لغات تعاقبت من ثلاثة وثلاثين قرنا عليها ، وهي.. الاوستائية والباستانية والبهلوية والفارسية الاخيرة . اما الاوستائية فقد كانت لغة الاقوام الذين انحدروا بها من جبال [هندكوش] الى ايران .. انحدروا بها في طائفتين احدهما [المادية] التي سكنت الى بحيرة [خزر] والاخرى [الفارسية] التي قطنت شمال غربي خليج البصرة . على ان آداب الماديين لم تزل كلها مضطمرة عن حاسة العيان .. بينا آداب الفارسية اميط عن بعضها الغطاء في اربعين لوحة اثرية وجدت في جبل « بيستون » وغيره . ومن عجب ان هذه اللوحات لم تكن دونت باللغة الاوستائية في مستوطن الاوستائيين ، وانما دونت باللغة الباستانية الوطنية .. مما نستنبط ان الباستانية كانت اطغى على الافكار وابلغ — سيما انها عاصرت نشأة الملكية والمدنية هناك . واعجب من ذلك ان اللوحات هذه لم تكن دونت باللغة الباستانية فحسب بل وباللغة الآشورية والعيلامية ايضا ، وبالخط [المساري الباستاني] خصوصا . فليس بدعا ان يرى الفرس حرصوا على اصول الباستانية نحواً وصرفاً حتى استلخصوا لأنفسهم منها هذه [اللغة الفارسية] الاخيرة .

ولما استحوذ اليونانيون على ايران فرضوا لغتهم فرضا على كل فم وطئ الى اواخر الدولة [الاشكانية] ، الا ان الملك (فرهاد الرابع) لم يشأ ان تبقى لغة شعبه كذلك ، وتمنى لو ان الباستانية تنبعث فتحل محل اليونانية الشائنة ، وكم كان سريعا وقوع ما تمناه ، اذ انبعثت الباستانية بأنقح نمط من ذي قبل ، فاستفاضت على الافواه باسم اللغة البهلوية الاشكانية.

اجل ، تحررت لغة القوم من شائنة اليونانية عهد ذاك ولكن الخط لم يتحرر معها من شائنة الحروف السريانية التي انتقلت اليها من العراق . فلما كان عصر الدولة الساسانية قام رهط من الخبيرين بعلم اللغة وفن التخطيط فاستبدلوا الحروف السريانية بحروف اخرى بعضها من اختراع انفسهم وبعضها مقبوس من خط (اللغة البهلوية) [باسم الخط البهلوي الساساني] ، وهو اليوم من اعقد الخطوط التاريخية كتابة وقراءة ، سواء على المستشرقين او على الايرانيين انفسهم ..

وتوجد في المكتبة الملكية بطهران اضاميم خطيرة من آثار الفرس الأدبية تسمى البهلويات — نسبة الى اللغة البهلوية وخطها — وقد ترجمها الى العربية افذاذ من جهابذة المسلمين عقيب انتصار الاسلام على المجوسية في ايران .

هذه لمعة تاريخية عن الادب الفارسي قبل الاسلام ، وسوف نعود ببحث عن المنظوم والمنثور باجتزاء ايضاً .

النجف — صدر الدين احمد